الهدف من وجود الإنسان في الحياة (العبادة)

الكاتبة: أسماء رمضان

قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[سورة البقرة:21].

– إن الإنسان هو محور العمارة الكونية في هذه الحياة، وهو الهدفمن ورائها، أما كل ما عداه فأسباب ميسرة نثرت له هنا وهناك ليراها أمامه فيستعين بها ويستخدمها في تحقيق رسالته..

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الجاثية:13].

إذن فهو المخلوق المتميز الذي فضّله الله على كثير من خلقه، وكرّمه على سائر المخلوقات الأخرى. وكلّف الملائكة بالسجود له متمثلاً في شخص أبيه آدم عليه الصلاة والسلام، وشرفه بالخلافة على هذه الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة30].

وذلك عندما شاء أن يجعله بالمهمة التي حمله الله إياها، مظهراً لعدالة الله تعالى وحكمته وأنه الحيوان الوحيد الذي جهزه الله بالعقل والتفكير والقدرة على إدارة الأمور.

وهنا تظهر لنا الحكمة من رفع الله سبحانه وتعالى من شأن الإنسان وجعله سيداً لهذا الكون وأنه لم يخلق عبثاً وإنما خلق لغاية وهدف يتكون من شطرين اثنين:

أحدهما:عمارة الأرض وإقامة مجتمع إنساني سليم.

والثاني: ألا وهو عبودية الإنسان لله تعالى وعبادته له [وهذا محور حديثنا الآن]

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾[سورة طه:132].

وهكذا يتبين لنا أن محور الدين الذي ألزم الله من عباده بما فيه من عبادات إنما هو تزكية النفس البشرية وتطهيرها مما قد يعلق بها عادة من الأدران والأوضار؛ وبمقدار ما تتزكى النفس وتصفو من كدورات الأهواء والرعونات يخلص صاحبها في تحمُّل مسؤولياته التي حمّله الله إياها.. قال تعالى﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾[الأعلى:14]وقال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[الذاريات:56-58].

– فقد أقام الله الإنسان على وظيفة يؤديها لذاته العلية هي أن يمارس عبوديته لله عز وجل بالسلوك الاختياري كما قد خلق عبداً له بالواقع الاضطراري، وأقام الله عز وجل ذاته العلية على وظيفة يؤديها تجاه الإنسان يضمن له بها مقومات حياته ورغد عيشه..

– فما الذي تقتضيه هذه القسمة من المسؤوليات؟

– مقتضى هذه القسمة أن ينصرف الإنسان (المؤمن بالله طبعاً) إلى الوظيفة التي عهدت إليه وكلف بها، مقابل التزام الله عز وجل بما قد تعهّد له به من توفير مقومات عيشه وتسخير المكونات التي حوله لمصالحه ورغائبه، ومن أوضح البديهيات أن علينا في هذه الحالة أن نصرف الجهد ونرهق الفكر في أداء الوظيفة التي كُلِّفنا بها، وأن نطمئن بالاً إلى الضمانات التي ألزم الله تعالى ذاته العليّة لنا بها، فلا نشغل بذلك فكراً ولا نحمل أنفسنا منه عنتاً أو اضطراباً...

ولكن في الناس من يجتهدون ويجدون ويرهقون أنفسهم فيما قد ضمنه الله لهم ويعرضون عن الوظيفة التي طلبها الله في مقابل ذلك منهم، وهذا دليل على انطماس البصيرة من هؤلاء الناس.. يقول ابن عطاء الله السكندري: "اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك، دليل على انطماس البصيرة منك" – وهذا إن دلّ على شيء يدل على عدم الثقة بوعد الله تعالى...

– ومن أهم ما يجب علمه أنه ما من مخلوق حيواناً كان أم نباتاً أم جماداً إلا وأقامه الله على وظيفة فهو منصرف إليها لا يشرد عنها ولا يتمرد عليها.. قال تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور41]

وقال تعالى:﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه50].

والإنسان ليس بدعاً من هذه المخلوقات، فهو الآخر هدي إلى هذه المهمة التي خلق من أجلها، إلا أن سائر المخلوقات الأخرى دونه تمارس وظيفتها بالقهر والاضطرار، أو بالغريزة والطبع..

أما الإنسان فقد قضى الله عز وجل أن يخلقه مختاراً ذا حرية وإرادة، وأن يدعى بعد ذلك إلى أداء وظيفته ومهامه من خلال حريته واختياره دون أن يكون للغريزة سلطان قاهر عليه، وذلك تكريماً له وتنزيهاً عن أن يساق كالحيوانات الجمادات إلى وظيفته بعصا الغريزة القاهرة..

ولذا فإن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يكثر فيه الشاردون بل المتمردون على الوظيفة التي كلف بالنهوض بها، إذا الإنسان يمارس وظيفته من خلال حريته ومدى رغبته..

قال تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[الحج:18]

– فمن الواضح أن المراد بالسجود الخضوع للوظائف التي أقام الله تعالى المخلوقات عليها..

والمطلوب من هذا الإنسان الذي قضى الله تعالى أن يكون له نصيب من الحياة فوق هذه الأرض أن يعرف ربه من خلال معرفته لنفسه عبداً مملوكاً له، ثم أن يصغي إلى الوصايا والأوامر والنواهي التي خاطبه الله تعالى بها فينهض بها وينفذها على الوجه المطلوب.

– قال عليه الصّلاة والسلام فيما يرديه عن ربه عز وجل [في الحديث القدسي]:

(عبادي إني ما خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة ولا لأستكثر بكم من قلة، ولا لأستعين بكم من وحدة على أمر عجزت عنه، ولا لجلب منفعة ولا لدفع مضرة، وإنما خلقتكم لتعبدوا لي طويلاً وتذكروني كثيراً وتسبحوني بكرة وأصيلاً).

– وهذه العبادة لله وحده هي العهد القديم الذي أخذه الله على بني الإنسان، وسجله بقلم القدرة في فطرهم البشرية،﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[يس:60-61]

فلا عجب أن يكون المقصود الأعظم من بعثة النبيين وإرسال المرسلين وإنزال الكتب المقدسة هو تذكير الناس بهذا العهد القديم، وإزالة ما تراكم على معدن الفطرة من غبار الغفلة أو الوثنية أو التقليد، ولا عجب أن يكون النداء الأول لكل رسول﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[المؤمنون23]

– وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدﷺبالعبادة بقوله:﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.. وهو الموت.

فالتكيف بالعبادة لازم له حتى يلحق بربه لا يسقط عنه بسمو الروح ولا بالاتصال القوي بالله... وهكذا... فبالرسالات كلها دعوة إلى عبادة الله وحده، والأنبياء كلهم هم أول العابدين لله، وعبادة الله وحده إذن هي غاية الوجود الإنساني في الإسلام وفي سائر الأديان السماوية..

معنى العبادة وحقيقتها:

– أصل العبادة في اللغة: هي التذلل والخضوع والانقياد والاستكانة، والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم كالحياة والفهم والسمع والبصر..

– أما العبادة في الشرع: فهي (خضوع وحب): أي أنها الخضوع والانقياد الكامل لله سبحانه ممزوجاً بمشاعر الحب والرضى واليقين بالإضافة إلى الخوف من الله سبحانه وتعالى..

ومن هنا ندرك أن العبادة المشروعة لا بدّ لها من أمرين:

– **الأول**: الالتزام بما شرعه الله ودعا إليه رسله أمراً ونهياً وتحليلاً وتحريماً؛ وهذا هو الذي يمثل عنصر الطاعة والخضوع لله. فليس عبداً ولا عابداً لله من رفض الاستسلام لأمره، واستكبر عن اتباع منهجه، والانقياد لشرعه وإن أقرّ بأن الله خالقه ورازقه، فقد كان مشركوا العرب يقرون بذلك ولم يجعلهم القرآن مؤمنين ولا عباداً طائعين.

وأساس الخضوع لله تعالى هو الشعور الواعي بوحدانيته تعالى وقهره لك من في الوجود وما في الوجود فكلهم بيده وخلقه:وفي قبضة قدرته وسلطانه.. قال الله تعالى:﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[الرعد: 15–16].

وأساس الخضوع لله الواحد القهار هو الشعور الذاتي بالحاجة إلى من يملك الضر والنفع والموت والحياة، ومن بيده ملكوت كل شيء، ومن إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون..

وهذا الشعور هو الشعور بالضعف أمام من يملك القوة كلها..والشعور بالجهل أمام من أحاط بكل شيء علماً، والشعور بالعجز أمام مالك القدرة كلها، والشعور بالفقر أمام صاحب الغنى كله..

فكلما ازدادت معرفة الإنسان بربه ازداد وضوح هذه المشاعر لديه وقوي اعتماده على الله، وتذلله له، وقوفه ببابه سائلاً داعياً منيباً إليه..

فإذا جهل الإنسان قدر نفسه، وجهل قدر ربه انحرفت مشاعره وأخذت تبحث لها عن رب تتجه إليه وتخضع له (وإن لم تشعر بذلك) أو لم تسمّه خضوعاً، ولم تسمِّ مقصودها رباً وإلهاً..

– **والأمر الثاني**: أن يصدر هذا الالتزام من قلب يحب الله تعالى، فليس في الوجود من هو أجدر من الله تعالى بهذا الحبّ فهو صاحب الفضل والإحسان الذي خلق الإنسان وأكرمه وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.. بل من أولى من الله بهذا الحب؟!!.. ومن يحب الإنسان إذا لم يحب الله تعالى؟!!..

– إن أساس محبة الله تعالى هو الشعور بفضله ونعمته وإحسانه ورحمته، والإحساس بجماله وكماله؛ فمن عرف الله أحبّه وبقدر درجته في المعرفة تكون درجته في المعرفة، ولهذا كان رسول الله ﷺ أشدُّ حباً لله، لأنه كان أعرفهم بالله وكانت قرة عينه في الصّلاة لأنها الصلة المباشرة بين قلبه وبين الله، وكان في دعائه يسأل الله الشوق

إلى لقائه، ولذة النظر إلى وجهه سبحانه، ولما خير بين البقاء في الدنيا وبين اللحوق بربه، اختار الرفيق الأعلى من الجنة..

- وهكذا يتبين لنا أن حقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب، وموافقته في حب ما يحب وبغض ما يبغض، والله تعالى يحب الإيمان والتقوى ويبغض الكفر والفسوق والعصيان.. والخطر كل الخطر إنما يكمن في ادّعاء المحبة دون تحقيق العنصر الأول: وهو الاتباع والانقياد لما جاءت به رسل الله (كاليهود والنصارى).. نسأل الله تعالى حبه وحب كل عمل يقربنا إليه...

مجالات العبادة: العبادة ذات مجالات متعددة؛ فهي لا تقتصر على الشعائر التعبدية، بل تشمل كل عمل صالح يتقرّب به إلى الله ويبتغى به وجهه وطاعته.فإذا ما عرفنا هذا المعنى للعبادة وعملنا به كانت حياتنا كلها عبادة.. مما يدل على شمول معنى العبادة في الإسلام وسعة آفاقها.. وهذا الشمول له مظهران:

الأول: شمولها للدين كله والحياة كلها..

الثاني: شمولها لكيان الإنسان ظاهره وباطنه..

- شمول العبادة للدين كله:

وقد عبّر -أي العبادة- ابن تيمية بقوله: "والعبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة كالصّلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والملوك والآدميين والبهائم، والدعاء والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادات..

كذلك حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين لله، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضى بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة".

وهكذا نجد أن للعبادة أفقاً رحباً ودائرة واسعة؛ فهي تشمل الفرائض من صلاة وصيام وزكاة وحج.. وتشمل ما زاد على الفرائض من ألوان التعبد التطوعي من ذكر وتلاوة ودعاء و... وتشمل الأخلاق والفضائل الإنسانية كلها، بل تشمل الخوف من الله تعالى في كل شأن من شؤون الحياة والرضا بقضائه وقدره...

ونستدل على ذلك كله بأحاديث رسول الله ﷺ التي تؤكد هذا المعنى، فمنها ما يبين ثواب الجهاد أو الصدقة أو حسن الخلق وغير ذلك.. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:(إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم) وفي صحيح البخاري عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في فِيّ امرأتك) ...

– العبادة تسع الحياة كلها:فما دام ديننا كله عبادة؛ معنى ذلك أنه جاء يرسم للإنسان منهج حياته، ويحدد سلوكه وعلاقاته، فمنه نتعلم آداب الأكل والشرب، وكيفية قضاء الحاجة، وإليه نرجع في بناء الدولة وسياسة الحكم، وسياسة المال، وشؤون المعاملات والعقوبات، وأصول العلاقات الدولية في السلم والحرب.. ولهذا نجد المولى سبحانه وتعالى يخاطب عباده المؤمنين في كتابه الكريم بأوامر تكليفية وأحكام شرعية تتناول شتى جوانب الحياة؛ كحكم القصاص، والوصية، والصيام، والقتال، وغير ذلك..

(إذن فعبادة الله تعالى ليست محصورة في الصّلاة والصيام والحج والتلاوة والذكر والدعاء، بل تشمل كل شؤون الإنسان وحياته..).

– فالأعمال الاجتماعية النافعة عبادة: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه قال: (كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته فيحمله أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يمشيها إلى الصّلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة).

– وعمل الإنسان في معاشه عبادة بشروط: أي الأعمال الدنيوية التي يقوم بها الإنسان لمعيشته وأهله من أبواب العبادة: كالمزارع، والعامل، والتاجر، والموظف، وكل ذي حرفةٍ يستطيع أن يجعل من عمله صلاةً وجهاداً في سبيل الله إذا التزم في الشروط الآتية:

1 – أن يكون العمل مشروعاً ولا منكر فيه: فلا يجوز للمرء أن يتعامل مع الربا أو أن يعمل في الحانات ونحوها فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً..

2 – أن تصحبه النية الصالحة: نية المسلم إعفاف نفسه، وإغناء أسرته، ونفع أمته، وعمارة الأرض كما أمر الله تعالى..

3 – أن يؤدي العمل بإتقان: وإحسان فإن الله تعالى يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه..

4 – أن يلتزم فيه حدود الله: فلا يظلم ولا يخون ولا يغش ولا يجور على حقّ غيره..

5 – ألّا يشغله عمله الدنيوي عن واجباته الدينية، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

فإذا راعى المسلم في عمله هذه الأمور كان في سعيه عابداً لله تعالى.. قال عليه الصلاة والسلام: (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة)..

– حتى أعمال الغريزة وقضاء الشهوة: فالعبادة تشمل أيضاً الحاجات الضرورية التي يؤديها المسلم استجابة لدافع الغريزة البشرية كالأكل والشرب ومباشرة الزوج لزوجته؛ ولكن بشرط واحد وهو "النية"..

فالنية: هي المادة السحرية العجيبة التي تضاف إلى المباحات والعادات فتصنع منها قربات وطاعات..، ويوضح ذلك حديث رسول الله ﷺ لأصحابه: (وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في الحرام أكان عليه وزر؟ قالوا: نعم، قال كذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر).. وهذا من تمام رحمته تعالى بعباده، يثيبهم على ما فيه قضاء شهواتهم إذا نووا أداء الحقوق وإحصان الفرج..

– وهكذا ففي شؤون الحياة لا حصر للأعمال الصالحة تنتهي عنده؛ إنما هو إسلام الوجه لله، وإصلاح العمل

آثار شمول مفهوم العبادة لحياة الإنسان:

– من أبرز آثار شمول العبادة أمران:

1 – أن يصبغ حياة المسلم وأعماله فيها بالصبغة الربانية: ويجعله مشدوداً إلى الله في كل ما يؤديه للحياة، فهو يقوم به بنية العابد الخاشع، وروح القانت المخبت، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كل عمل نافع وكل إنتاج صالح، وكل ما ييسر له ولأبناء نوعه الانتفاع بالحياة على أمثل وجوهها؛ فإن ذلك يزيد رصيده من الحسنات والقربات عند الله عز وجل، كما يدعوه هذا المعنى إلى إحسان عمله الدنيوي وتجويده وإتقانه ما دام يقدمه هدية إلى ربه سبحانه، ابتغاء رضوانه وحسن مثوبته..

2 – أنه يمنح المسلم وحدة الوجهة، ووحدة الغاية في حياته كلها: فهو يرضي رباً واحداً في كل ما يأتي وبدع، ويتجه إلى هذا الرب بسعيه كله الديني والدنيوي، لا انقسام ولا صراع ولا ازدواج في شخصيته ولا في حياته وبهذا ينصرف همه كله إلى الله، ويجتمع قلبه كله على الله، ولا يتوزع شمل حياته وفكره وإرادته ووجدانه بين شتى الاتجاهات، فحياته كلها وحدة لا تتجزأ، منهجه فيها عبادة الله، وغايته رضوان الله لا يبالي معه بسخط الناس أو رضاهم..

شمول العبادة لكيان الإنسان كلّه: فكما شملت العبادة الحياة كلها، استوعبت كذلك كيان الإنسان كله؛ فالمسلم يعبد الله بالكفر، ويعبد الله بالقلب، ويعبد الله باللسان، ويعبد الله بالسمع والبصر وسائر الحواس، ويعبد الله ببذل المال، ويعبده ببذل النفس، ويعبده بمفارقة الأهل والوطن..

– المسلم يتعبد الله بالفكر: عن طريق التأمل في النفس والآفاق، والتفكر في ملكوت السماوات والأرض، والنظر في مصير الأمم السابقة وأحداث التاريخ وما فيها من عظة وعبرة، والتدبر لآيات الله تعالى؛ هذا كله مما يتقرب به المسلم إلى الله تعالى.. قال تعالى:﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[سورة ص:29] وقال تعالى:﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات: 20-21].

– المسلم يتعبد الله بالقلب: عن طريق العواطف الراقية الربانية والمشاعر الروحية مثل: حب الله وخشيته، والرجاء في رحمته والخوف من عقابه، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه، والشكر لنعمائه، والحياء منه، والتوكل عليه، والإخلاص له.

– المسلم يتعبد الله باللسان: عن طريق الذكر والتلاوة والدعاء والتسبيح والتهليل والتكبير، قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[الأحزاب:41-42]

وقال رسول الله ﷺ:(اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه) /رواه أحمد ومسلم عن أبي أمامة/.

والمسلم يتعبد الله ببدنه كله: إما كفاً وامتناعاً عن ملذات البدن وشهواته كما في الصيام، وإما حركة وعملاً ونشاطاً كما في الصلاة التي يتحرك فيها البدن كله؛ اللسان والأعضاء مع العقل والقلب..

والمسلم يتعبد الله ببذل المال: (الذي هو شقيق الروح) كما في الزكاة والصدقات؛ وهذا ما يسميه الفقهاء (العبادة المالية) كما سمّوا الصّلاة والصوم العبادة البدنية، ويعنون بكلمة "البدن" هنا كيان الإنسان كله لا الجسم المادي وحده. فإن النية شرط لكل عبادة، ومحلها القلب بالإجماع، وعبادة المجنون والسكران ونحوهما لا تصح ولا تبقل.

– والمسلم يتعبد الله ببذل مهجته والتضحية بنفسه: وبمصالحه المادية العاجلة ابتغاء مرضاة الله، كما في الدعوة إلى الله والنهي عن المنكر والأمر بالمعروف، وجهاد الكفار والمنافقين لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة اللذين كفروا هي السفلى.

– والمسلم يتعبد الله بمفارقة الأهل والوطن: والضرب في الأرض إما للحج والعمرة، وإما للهجرة إلى أرض يستطيع فيها المسلم إقامة دينه، وإما للجهاد في سبيل الله، وإما لطلب علم نافع، أو نحو ذلك..؛ مما يبذل فيه المسلم – عادةً – راحة بدنه وحرِّ ماله، ولهذا نعتبر هذا النوع من العبادات "بدنياً ومالياً" معاً..

أي العبادات أفضل؟..وإذا كانت العبادة في الإسلام لها ذلك الشمول.. فأيُّ أنواع العبادات أفضل وأحبّ إلى الله تعالى؟..

– لقد فصّل ابن القيّم في جواب هذا السؤال ذاكراً اختلاف طريق السالكين في ذلك، مرجحاً ما رآه أقرب إلى الصواب، ولبُّ كلامه وملخصه: أن منهم من قال: إن أفضل العبادة أشقها على النفس، ومنهم من قال: أفضلها الزهد والتجرد، ومنهم من قال: أفضل العبادات ما كان منه نفع للغير، ومنهم من قال: (وهذا أقرب الأقوال إلى الحق وأولاها بالصّواب): أن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب سبحانه وتعالى في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته..

– فالأفضل من العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن.

– والأفضل في وقت السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار..

– والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به..

– والأفضل في وقت الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن..

– والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إقامتها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع، وإن بعد كان أفضل..

– والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبنا به، فنجمع قلبنا على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره..

– والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعِف عن ذلك..

– والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعيِّن..

– والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدّي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن، عند كثير من العلماء..

– والأفضل في مرض أخينا المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه..

وهكذا.. فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه..

بل وهكذا ينبغي أن يكون جميع المسلمين؛ ملتزمين بمعنى العبادة في الإسلام وأنها ليست تجرداً عن الدنيا والتزاماً لأركان الإسلام فقط بل ما من عمل صالح تصاحبه النية الصالحة مع الإخلاص حتى ولو كان في شؤون الدنيا وإعمار الأرض إلا ويدخل تحت مفهوم "العبادة".

وأما من يتخذ العبادة (بالمعنى الخاص لها من عبادات) سبباً لإهماله واجباته في عمله أو إنفاقه على من يعول أو خدمته مجتمعه وأهل مجتمعه فقد أخطأ في فهم العبادة وعليه أن يصحح فهمه لها ونظراته إليها..

"إخلاص القلوب والنية الصالحة أساس القبول"

– إن أساس القبول لأيّ عبادة هو إخلاص القلوب لله تعالى: فإن حقيقة العبادة ليست شكلاً يتعلق بالمظهر، ولا رسماً يتصل بالجسد؛ ولكنها سر يتعلق بالقلب وإخلاص ينبع من الروح، فإذا لم يصدق قلب المسلم في عبادته، ولم يخلص لله في طاعته، وأداها رسوماً خالية من الروح، فهناك يردُّها الله عليه.. قال تعالى:﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [سورة البينة:5].

– فالقلب هو الأساس في الإسلام، وهو موضع نظر الله تعالى، ومحل عنايته، وهو مستند القبول والفلاح في الآخرة.. قال رسول الله ﷺ:(إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم) /رواه مسلم/..

ولهذا يرى الإسلام أن العبادة المرضية عند الله ليست هي ذلك الشبح الخالي من الروح، وإنما هي تلك التي تصاحبها النية الصادقة، ويسري فيها روح الإخلاص، فتوتي في النفس أكلها، وتثمر في الخُلق والسلوك ثمرتها، وتذكر صاحبها بحق الله تعالى، وتنبهه على حقوق الناس.

قال عليه الصلاة والسلام: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى..)

والحمد لله رب العالمين على الطاعة والتوفيق والشكر لله سبحانه وتعالى على أننا مسلمون..وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..

مراجع البحث:

العبادة في الإسلام للقرضاوي.شرح الحكم العطائية (الجزء الأول) للدكتور البوطي حفظه الله.

منهج الحضارة الإنسانية في القرآن للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله.

كلمات صغيرة في العبادة والعقيدة لبديع الزمان سعيد النورسي.